الباب الحادي عشر

ما قيل إنه لا يطاع المخلوق في معصية الخالق

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾[1].

وقالَ رسول الله ﷺ: «لا طاعةَ للمخلوقِ في معصيةِ الخالقِ».

وقال أبو حازم: إن ثلاثةَ نفرٍ جاؤوا يطلبون أبا مسلم الخَوْلانيَّ؛ رجلٌ من أهلِ العراق، والآخرُ من أهلِ الحجازِ، والآخرُ من أهلِ الشامِ، فلما رأوه ازْدَرَوْه، فقال أبو مسلم: أما أنتَ يا أخا الشامِ؛ ما رأيتُ قوماً أطوعَ للمخلوقِ وأعصى للخالقِ منكم، وأما أنتَ يا أخا العراقِ؛ فما رأيتُ قوماً أطلبَ للعلم، وأضيع للعمل منكم، وأما أنتَ يا أخا الحجاز، فما رأيتُ قوماً أطلبَ للفتنةِ، وأضعفَ فيها منكم».

وقال ابن مسعود: من أتاك بحقٍّ فاقبله، وإن كان مبغضاً بعيداً، ومن أتاك بباطل فردَّه، وإن كان حبيباً قريباً.

وقالَ رسول الله ﷺ عليكم بالسمعِ والطاعةِ، إلا أن يأمرَ بمعصيةِ اللهِ فلا سمعَ ولا طاعةَ.

وقال القاسم بن محمد؛ والي البصرة، لمالكِ بنِ دينارٍ: أتدري ما الذي يُجَرِّئُك علينا ويَجْنُبُنا عنكَ؟ قلتُ طَمَعُكَ فينا، وتركُ تحاسدِكَ لما في أيدينا.

---

(1) هود: الآية (113).

قال: وكان عبد الله بن فَروة أميراً على المدينة، فبعثَ إلى أبي حازم أن يأتيه، فلم يأتِه، وقال: إن الخيرَ يؤتى، فإن كان لكَ حاجةٌ فأتني، وأما أنا فليس لي إليكَ حاجةٌ.

وقالَ رسولُ الله ﷺ: «أيّما قومٌ حضروا ظالماً يظلم، فلم يقولوا له جميعاً: ظَلَمْتَ، تبرَّأ الله منهم جميعاً». قال: ودخل سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ على طاوس بمكةَ يعودُه فما كلّمه إلا بجوابِ كلامهِ، فلما قام سليمانُ من عندِهِ قيل له: أتاكَ أميرُ المؤمنين، ولم تُنَاطِقْه إلا بجوابِ كلامهِ؟ قال: إني أحببتُ أن يعلمَ هو أنَّ في عبادِ اللهِ من يستصغرُ ما يستعظمُ هو.

قال: ولما خالطَ الزُّهريُّ السلطانَ كتبَ إليه أخٌ من إخوانه: عافانا اللهُ وإياكَ من الفتنِ، فإنك قد أصبحتَ بحالٍ ينبغي لمن عرفكَ أن يدعوَ لكَ، ويرحمَكَ، أصبحتَ شيخاً كبيراً، قد أثقلتْكَ نعمُ الله، لما فهّمك في كتابه، وعلّمكَ من سُنةِ نبيه، وليس كذلك أَخَذَ اللهُ الميثاقِ، وقال: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾[1]، واعلمْ أنَ أيسرَ ما ارتكبتَ وأخفَّ ما احتملتَ أنكَ آنستَ وحشةَ الظالم، وسهّلتَ سبيلَ الغيِّ بدنوِّك ممَنْ لا يرُدُّ باطلاً، ويقبلُ حقاً حين أدناك، اتخذوكَ قُطْباً تدورُ بكَ رَحى أباطِيلِهم، واتخذوكَ جسراً يعبرون عليكَ إلى بلائهم، واتخذوكَ سُلَّماً يرتقون فيكَ لضلالتهم، يُدخِلُون بكَ الشكَّ على العلماء، ويقودون بك قلوبَ الجهالِ، فما أيسر ما عَمَروا لكَ في جنبِ ما خرَّبوا عليك! وما أكثر ما أخذوا منكَ فيما أفسدوا عليك من دينك! فما يؤمنكَ أن تكونَ ممن قالَ اللهُ فيهم: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾[2]، وإنك تُعامِلُ

(1) آل عمران: الآية (187).

(2) مريم: الآية (59).

مـن لا يجهلُ، ويحفظُ عليك مَنْ لا يغفُلُ عنكَ، داوِ دينَك، فقد دَخَلَه سُقْم، وهيـئ زادَكَ فقد حضرك سفرٌ بعيد ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾[1]، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

الحكاية

قـال وهبٌ: ما أنتـم فيما خلا إلا مثل دُخانٍ عند النـارِ، ثم جعلَ يقول: كانتِ امرأةٌ فيما مضى يقال لها: سارةُ، ولها سبعُ بنين، وهم على دينِ اللهِ وطاعتهِ، فسُعِيَ بهم إلى ملكٍ كافرٍ، فأكرَهَ أحدَهم أن يأكلَ لحمَ الخنزير، فأبـى، وقال: لا آكلُ شيئاً حرّمَ اللهُ علي، فقطع يديـه ورجليه، وقطَّعه إرباً إرباً، ثم قَرَّبَ الآخرَ، وأمره بأكل لحم الخنزيرِ، فلم يأكلْه، فأغلاه في قِدْرٍ مِـن نحاس، ثمَّ استدعـى بالثالثِ وأمره كما أمر أخاه، فقـال له: أنتَ أقلُّ وأذلُّ وأهـونُ علـى اللهِ، من أن أعصيَ اللَّهَ بطاعتِـكَ، فضحك الملكُ وأمرَ بـأن يُسلخَ جلدُ رأسِه ووجهه إلى القدم، ولم يزلْ يقتلُ كلَّ واحدٍ منهم بقتلٍ غيرِ قتلِ أخيه، حتى بقي أصغرُهم وأمُّه، فقالَ الملكُ لهما: امتثلا أمري، وإلا قتلتُكما شرَّ القتلِ، فقالت الأم: يا ولدي اصبرْ قليلاً حتى تلحقَ بإخوانِك في دارِ الكرامـةِ عندَ اللهِ، فقال: يا أماه، إني خفتُ عليكِ لـمّا نظرتُ إلى أنكِ عجَـزتِ عنهـا، لا واللهِ لسـتُ آكلُ شيئاً حرمه اللهُ علـي، فرجعا إلى الملك فقالا: نحن لا نطيعك في معاصي الله، فقتل كليهما، وانقلبوا إلى رحمة الله جميعاً، مطيعين لأمره، عاصين الملكَ الظالم.

(1) إبراهيم: الآية (38).